النهار

23578 العدد - 76 السنة - 2009 كانون الثاني 11 الأحد

دجو كوستولاني: بـــرج بـــابـــل

ها هي الجماهير، الشعوب. إثنان وثلاثون شعباً تدرس اللغة والأدب الفرنسيين في مقاعد جامعة غرونوبل المتدرجة حتى السقف، والعرق يتصبب من الوجوه.
عندما أجول بنظري على زملائي الطلبة الجالسين في قاعة الدرس كل صباح، النساء والرجال والصبايا والشيوخ، أقهقه ضاحكاً لفرط سروري. يا لها من نزوة بديعة للطبيعة، عندما توجد هذه الكثرة من الأناس المختلفين. لا يتسرب الملل إليك عند رؤية هذا المشهد المتنوع، الفروق في شكل الجمجمة وعظم الفكّ والأهداب وخصلات الشعر التي تصرخ عن بعد: "أنا أختلف عن الآخرين". كأنها الواجهة الزجاجية، لكن من كائنات حية. كأنها حديقة "الإنسان"، تصطف فيها الأنواع مثل الغرسات في المشتل، مثل الحيوانات في حديقة الحيوان، وهي تشهد على عمق مخيلة الطبيعة وإبداعها الذكي. مثل الغابة الإستوائية، ليس فيها ورقتان متشابهتان. فكرة مؤلمة تخطر ببالنا: كثيراً ما حاولت هذه الشعوب قهر بعضها البعض على مر التاريخ. لكن لو نقول لها الآن إنها ستتماثل فجأة في مظهرها، إنها ستتبع راعياً واحداً وحيداً وتتكلم لغة واحدة، ستتردد، ترى هل أقبل بالتبادل فأعطي غناي التعس في مقابل الحصول على الفقر السعيد؟

•••

أنظر إليهم بتمعن، واحبس نفسك. الجميع جاؤوا الى ههنا، من جهات العالم الأربع. إنها لعبة مثيرة، أن نخمّن من أين جاء هذا أو ذاك، لكننا لن نصاب بالخيبة. أنظر الأميركان، أبناء قارة لا تزال في طفولتها، الذين يعتبرونهم وقحي الدولار، لكنهم لطاف في الحقيقة ويتصرفون بعفوية إن تقربت منهم، ويا عجبي أن يكونوا من بلاد معلّبات اللحم وتروستات النفط، إنهم أشد إيماناً من فتيات المدن الصغيرة البسيطات، وهم يأخذون معهم برج إيفل مذهّباً أو غليوناً مصنوعاً من الجذور هدايا إلى بلدهم. كم هي التنويعات الممكنة ضمن هذه الصورة: شاب رأسه يشبه قلب ثمرة الكرز، سيدة كبيرة السن متصلبة كأنها ياقة منشّاة، من رأسها إلى قدمها، بنت رقيقة يافعة، بجعة سوداء، جمالها نادر الطعم، تُشعرنا بسحر العالم الجديد وهي هزيلة، حامضة كالليمون، رتيبة كذلك، ترفع لنا كتفيها على الدوام، أو تتثاءب، كأنها تودّ أن تنام، أو أنها ستموت على الفور، ربما، لأن العزيزة تعاني فقر الدم، ربما، لأنها غنية جداً، ربما، لأنها لا تفهم ما يقول من هم حواليها. أما الإنكليز فهم معتدلون حتى في الطفولة، شطّار، سيصبحون ديبلوماسيين عند طاولات المفاوضات المخملية الخضراء. المستقبل للأولين، الحاضر للأخيرين، وما عداهما هو الماضي، التراث الشاعري، القصائد الحبلى بالذكريات. قبل كل شيء السلاف، بعددهم الذي لا يعدّ، بوحدتهم وبتفرقهم، بأسرارهم، وابتساماتهم، وبسخريتهم من نفسهم، البولونيون، فرنسيو الشعوب السلافية، يدردشون بكثرة وسهولة، بوهيميون، رجالهم فرسان والسيدات بطلات روايات، بضفائرهن الثقيلات، وشعرهن العسلي الذي يمس الأرض على رغم موضة الشعر القصير، أما الروس، الغامضون كأنهم التلاميذ، تعلوهم آثار الجدري، وهم يخفون صور لينين بين طيات كتبهم، وهناك الصرب بأنفهم الذي يشبه منقار الصقر وضحكتهم البطريركية، والسلوفينيون الناعمون، والكروات النحاف السمر، والبوشناق الأريحيون. ثم يأتي الأشقاء الثلاثة من الشمال، النروجيون بوجوههم التي قرصها الجمد وعيونهم الزرقاء زرقة الفيورد، كالعذارى، وجناتهم جاهزة للإحمرار دوماً، ببراءة، وهناك الأنسات الأسوجيات اللائي يتناكدن حول القضايا الإجتماعية، يبرد حولهن حتى قيظ الصيف وينخفض درجة واحدة كاملة، الدانماركيون النظيفون حد النقاء، هؤلاء الأوروبيون المميزون بشعرهم الأشقر الذي يقارب البياض بشواربهم المبرومة. ثم هناك الايرلنديون، بشعورهم الحمر وربطات عنقهم التي تعبث بها الريح وأرواحهم الفائرة. والهولنديون وكذلك الألمان الدقيقون كالساعة السويسرية، عبثاً، مجتهدون الى درجة تثير القلق، القواميس اناجيلهم، ويحملون ثلاثة أقلام حبر في جيوبهم، وهناك النمسويون، وبنات فيينا اللائي يلبسن بأناقة ويقضمن شيئاً ما على الدوام. بعد ذلك هناك الفرس، شعورهم مجعدة كخراف المارينو وهم متلهفون كالجدي. ثم اليابانيون، الذين يتربصون بكلمات الأستاذ بوجوه متحايلة من وراء نظاراتهم ذوات الأطر الذهبية، بانتباه شديد الإرادة، مكثرين من الاستفسار حتى تكاد شرايين جبهتهم تنفجر. وهناك الصينيون، الشيوخ العتيقون، برؤوسهم كرؤوس الفيلة، وأفخاذهم الضامرة النحيلة كأفخاذ الأطفال تضيع في السراويل، نضجوا قبل الأوان، علماء متعنتون، قصيرو النظر لا أمل في شفائهم، تصدر منهم أصوات حلقية بلثغة، يهسهسون كالحرير، يموؤون كقط صغير حديث الولادة عندما يُخنق في حوض ماء، يسقسقون كالعصافير، بيد أن بناتهم لذيذات، يلبسن ملابس اوروبية، تنورة وردية ونطاق أبيض وجوارب صفراء، وحذاء جلدي صغير على أقدامهن المشوهة، يتمايلن به تحت شمسياتهن الصغيرة كلعب الأطفال نعسات، كما لو كن يدفعن أمامهن مهداً خفياً. وهناك اللاتين الذين أذكرهم في الأخير حتى أمتدحهم وأغازلهم، الأسبان المهذبون والأبطال حتى وهم في حَموتهم، وأخيراً الطليان، الطليان أبناء الضوء الساطع الصاخبون، الذين يختلفون

عن كل الخلق في المظهر، متفرّدون في كل شيء، اللاتين الأكثر لاتينية، ساحرون، فضائحيون تقريباً، ونساؤهم بشعورهن المقصوصة، بزغبهن الذي يشبه خيال شوارب الصغيرة النابت جرّاء حسّيتهن كأنهن القاتل الأشعث الشعر أو العذراء التي تُعبد، مع حركة خالدة من حركات دوسه. سواء أكنّ جميلات أم قبيحات، لا تجد بينهن باردة أو غير سائغة. اكتشفت وجه الأباطرة الرومان القدماء في وجه بنت ممتلئة مدوّر كوجه بقّال القرى. هذا كان أروع مسرح أدخله.
برج بابل، أو بالأحرى عيادة الألسنة. في الفصل، قاعة مارسيل ريمون، حيث جلست البراعم التي أنبتتها هذه الشعوب، قرابة الألف منهم، يوجد شخص واحد يجيد الفرنسية: فردينان برونو عميد الجامعة الباريسية، أو السيد فوشيه، استاذ اللغة، أو السيد دورافور، عالم الصوتيات، باختصار، من يقف على المنصة ليلقي محاضرته. أما الباقون، من ضمنهم اولئك الذين "يتكلمون بطلاقة" و"يكتبون من دون أخطاء"، يقتنعون يوماً بعد الآخر، بأنهم لا يعرفون شيئاً. يرتسم على وجوههم التردد. كلهم اخوة في هذا الكرب. لذلك يستحقون الشفقة جميعهم. يتكلمون، لكن ليس لديهم ما يقولون. اللغة عندهم ليست وسيلة مثلما هي الحال عند البشر الفانين الإعتياديين، بل غاية ذاتية، كما هي عند الشعراء. لو سبّهم الحوذي في الشارع، لا ينتبهون إلى السباب ذاته، بل إلى توافق الـ participe passé وموقع الـ complément. وهم في هذا الشأن قديسون بحق وحقيقة. يعلمون أنهم مرضى. يعالجونهم من الصباح حتى المساء، يعالجون آذانهم بالكلمة الحية وتسجيل الغرامافون، سقف فمهم ولهاثهم وحلقهم ومناخيرهم بتمارين تئن لها العضلات. ثمة أيام "يشعرون فيها بتحسن" كما هي الحال مع من يمر في فترة النقاهة، "يتحدثون من دون تردد"، يسألون ويجيبون عن الأسئلة، لكن تمر عليهم ساعات، هي ساعات اليأس والتعب، عندما يقتنعون بلا جدوى كل جهد يبذل، لا يستطيعون التعبير عن أي شيء، عندها يموتون على الفور، يرتمون على الأرض، لأن قوة الجاذبية تمكنت من جذبهم إلى مجالها من جديد، المجال الذي يريدون التحرر منه، لغتهم الأم التي لن تفكّهم من قيودها أبداً.

•••

من هي هذه المرأة التي تنظر إلى مرآتها اليدوية في ساحة الجامعة تحت شجرة التين؟ إنها البنت الكاليفورنية المليونيرة. يعرفها الجميع. لا تفوّت حصة من الحصص، وتأخذ دروساً خاصة، تقرأ بصوت عالٍ في غرفتها حتى الفجر، عساها تتخلص من لكنتها الانكليزية في الكلام. تأتي إلى الجامعة في الصباح وعيناها محمرّتان بسبب السهر. لا تتمعن في وجهها الجذاب حتى في هذه المرة، بل في تنفسها وبخار زفيرها المتكثف على المرآة، كما تعلمت في حصص علم الأصوات، ألا تنطق الحروف الشفوية b و p بتبذير الكثير من الهواء؟ طحنها هذا الصراع المرير المسكينة. نحف جسمها وبدأت تقبح، أخذت تضع منديلاً أمام وجهها الشاحب، كما لو أنهم أجروا عملية خطرة على لسانها.

عن المجرية: ثائر صالح

2009 النهار جريدة © - جميع الحقوق محفوظة